دراسات..

أنطولوجيا اللُّغة

□ صلاح الدين يونس*

الأنطولوجيا "مبحث الوجود"، وهي يونانية الأصل Logost ontos**، إذ آلت إلى نظرية غايتها "الوجود بما هو موجود"، وقد كثر العاملون في هذا الحقل، لكن الفيلسوف "فولف كريستيان فون**1679–1745**" الألماني عمد إلى بناء نظرية فلسفية عن جوهر العالم على نحو فكري، اعتماداً على تحليل المفاهيم المنطقي وحده دون التجربة، ومن تصورات الأنطولوجيا المعهودة "أن العام يوجد بمعزل عن الفردي، وإنّه يشكل علّة الفردي وماهيته"، أما ماديّو القرن الثامن عشر الفرنسيون فقد استندوا إلى معطيات علوم الطبيعة، بينما طرح هيجل الفيلسوف المثالي الألماني فكرة وحدة الأنطولوجيا والمنطق ونظرية المعرفة في قالب مثالي ـ وأمّا الأنطولوجيا الحديثة "هارتمان** 1882ـ 1950**، وهوسلر** 1859ـ1938**" فقد دعت إلى بناء صرح في الوجود على أرضية التجريب**(1).

ومن معطيات التجريب تنشأ المقولات التي تؤكد على تعالي اللغة وانفصالها عن الوجودين: المادي والذهني، ويمضي دعاة هذا الاتجاه إلى أنّ اللغة تتجاوز حدودها الوظيفية، وطبيعتها كأداة إشارية، إلى أن تكون متقدمة زمانياً على المعنى، وتقدّمها يعزز "إنتاجها للمعنى" فلا معنى خاصاً أو عاماً يقع خارج "العبارة"، وبناء على تقدم **اللغة على المعنى**، فإن الناتج عنه هو انفصال "الاسم" عن "المسمّى" والانفصال ليس جزئياً، إنما هو مصاحب بالتعالي.

ومن المرجّح أنّ هذه الإشكالية "الأنطولوجيا العربية" قد نشأت في إثر المفاعلة الثقافية القائمة بين الفرق الدينية والفكرية حول قضية **الخلافة** والتي تطورت

---

* **أستاذ جامعي وباحث من سورية.**

إلى اتجاهات فكرية وفلسفية، تجاوزت مسوغات النشوء لتدخل في فلسفة اللغة والطبيعيات والإلهيات، ومن أهم الفرق "**المعتزلة**"، و"الأشاعرة" كاتجاهين انطلقا من أرضية واحدة هي "**علم الكلام**"، وعلم الكلام يطلق على العلم الذي يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينية الإسلامية، بإيراد الحجج ودفع الشبه، وموضوعه ذات الله وصفاته، وأفعاله في الدنيا كحدوث العالم، وفي الآخرة كالحشر، كبعث الرسول ونصب الإمام، والثواب والعقاب، ولكن موضوعه الأساس هو الوجود بما هو موجود، هنا يشترك علم الكلام مع العلم الإلهي، فعلم الكلام يبحث في الأدلة الشرعية والعقلية، بينما يبحث العلم الإلهي في الأدلة الذهنية الخالصة، ومن وظائفه إنشاء الجدل والمحاجة في الشرعيات.

ومن البيّن أن الخلافات بين الفرق إنما نشأت حول الخلافة "السّلطة"، ثم انتقلت الفرق إلى النص القرآني لتشتق منه ما يسوغ موقفها، على أنّ "القرآن" حمّال ذو أوجه"(2).

ولما كانت الخلافات تتسع أفقاً وجذراً، نقل المشتغلون بالتسويغ الاهتمام من الشرح إلى التفسير، وعندما أغنى "الخارجُ" الوافد الآفاق انتقلوا إلى "التأويل" أما الشرح والتفسير فقد كانا تركزاً داخلياً حول اللغة وحول وظيفتها الأساسية وهي "تمكين" المسلم من علوم الدين، في حين قصر اللغويون عند تقدم التأويل لينهض به الفلاسفة المسلمون، ومعظمهم من غير العرب، " الفارابي. ابن سينا. ابن باجه" لكنهم كتبوا وتثاقفوا بالعربية وتحت شرط الخلافة، ولم يكن اللغويون والنقاد ببعيدين عن تلك الفرق، **فابن قتيبة الدينوري276هـ/** 828ـ 889م، رغم ولادته في الكوفة إلا أنّه كان خطيب السنة، والجاحظ ت 255 هـ ـ "775ـ889م" رغم دفاعه عن الأصولية الباكرة كان يتهم بأنه خطيب المعتزلة، والنحوي الفقيه **أبو زكريا يحيى الفراء ت207 هـ** إمام الكوفة الشيعية، ومن الفقه ابتدأ ليغدو إمام النحو.

من التنازع إلى الثنائية:

وفي إثر التنازع الفرقي ينقسم الفكر العربي اللغوي إلى اتجاهين: الأول "الاسم" أمر غير المسمى- بل إن المسمى أمر مختلف، الثاني يقول بالتطابق بين الاسم والمسمى، والانقسام هذا لم يقف عند حدّه الأول، فقد أوصل الافتراق إلى ثنائية جديدة وهي الحقيقة والمجاز، ثم إلى ثنائية أخرى وهي التوقيف والاصطلاح، والتي أشبعها **ابن جني 392هـ** في خصائصه شرحاً ومداولة "هذا موضع محوج إلى فضل تأمل، غير أنّ أهل النظر على أنّ أصل اللغة إنما هو تواضعٌ واصطلاحٌ، لا وحي وتوقيف، وذلك أنّه يجوز أن يكون تأويله "وعلم آدم الأسماء كلها" أقْدر آدمَ على أنْ واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة، فإن كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به، ... على أنّه لم يمنع قول من قال:" إنها تواضع منه"(3).

ثـم امتـدت الثنائيـة لتشـمل اللفـظ والمعنى، وإذا كانت الفرق الإسلامية "شيعة ، سنة، معتزلة، أشاعرة" قد دخلت في تنازع أيـديولوجي، فـإنّ التنـازع ذاك أفضـى إلى "التأويـل" والتأويـل مرحلـة أقصـت فرقـاً واصطفت أخرى، وما كان المؤولون إلا من تلـك الفـرق الـتي اصْـطُفيتْ "المعتزلـة ـــ الأشاعرة" ومن أهم الفرق التي وقفت عند التوقيف "الظاهرية"، على أنّ اللغة ـ عندهم ـــ مجـاز، وتـرى "**الظاهريـة**" أنّ الحقـائق لا ينبغـي لأحـد تحريفهـا أو الانزيـاح عنهـا أو تغييرهـا، في حـين يواجـه غيرهـم مـن أهـل المجاز اللغة بالسّبق عليها من غيرها، وهو سـبقٌ افتراضـي، والسـابق قـد يكـون خارجياً، وقد يكون عقلياً، فالخارج يطابق الكلام فيه أحوال الواقع، والعقلي يفترض تصـويب أحكـام اللغـة، وهـو هنـا يعلـن أنّ الـذي بـين اللغـة والأدب كالـذي بـين اللفـظ والمعنـى، وهـذا يعيـد المبحـث إلى أنّ الأدب بوصفه فعلاً إبداعياً، إنما هو فعل لغوي غير اعتيادي "إبداع" وما الإبداع بمحض تعبير عن "وقائع" لها وجود عياني، ولو تمّ التسليم بهذا الـرأي لـتمّ ـ في إثـره ـ إنتاج رؤيـة في النقـد مختلفـة حيـال الارتبـاط بـين "الـواقعي" و"الأدبـي"، وهنـا لا بـدّ واصـل إلى قناعـة مؤداهـا: إنّ المصـطلح اللغـوي لا ينتمـي إلى فكرة "الإبداع".

فما المصطلح؟

كثـرت الآراء في تحديـده أو تعريفـه، وقليل منها الـذي ميّـز بـين طبيعتـه ووظيفتـه، ومنهـا التعريـف الـذي يجـد فيـه "رمـزاً وضـع بكيفيـة واعتباطيـة، أو اتفاقيـة بـين فئـة مـن المختصـين في حقـل معـين مـن حقـول العلـم والمعرفـة لضـرورة البحـث، فـإنّ هـذا الوضـع يحتاج إلى إيضاح يحدد مجال استعمال الرمز ومعنـاه وقيمتـه حتـى لا يتوقـف القـارئ عنـد التطبيق ويفقد الاصطلاح معناه"(4)

وعن وظيفة المصطلح يقول باحث آخر: "أمّا علم المصطلح فهو تنظيري في الأساس، تطبيقـي في الاسـتثمار، ولكنـه فـرع جنـيني عـن علـم الدلالـة، وتـوأم لاحـق للمصـطلحية بحيث يقوم مقام المنظّر الأصولي الضابط لقواعد النشأة والصيرورة"(5).

ولعل أهم استثمار للمصطلح كان من الـذكر الحكـيم، ففـي قولـه تعـالى: (إنّـا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به) ، ومنه قوله تعالى في سورة الحشر (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله). وقد رأى الباحث التونسي **د. توفيـق الزيـدي** ظـاهرة الإعجـاز مرتبطـة بظاهرة "الوقْع" إذ ربط بين الطرفين بقوله: "المعجز بالوقْع" فقال: " إنّ مثل هذه الآيات تدل على أن في القرآن وعياً بمسألة الوقْع، وما نظمه ومضمونه إلا مكونان لهذا الوقع، مـن هنـا لا تكـون قضـية الإعجـاز في تلـك المكونات فحسب، وإنما في وظيفتها"(6).

وقـد أثـار الناقـد الشـكلاني الروسـي **شكلوفسـكي** ظـاهرة الوقـع مرتبطـة بظاهرة "**التغريب**" أي نزع الإلفة عن المألوف، ومتى يقوى الأديب على الحفاظ على قدرته لإدراكـات الموضـوعات يتحـتم علـى

الإدراكـــــات أن تغــــدو آليـــــة الوقـــــع **Outomatised**.

ويـرى **عبـد الله المعطـاني** أنّ المصـطلح لفظٌ أُريد بـه الدلالـة علـى معنـى أو جملـة مـن المعاني، اتفقت عليها جماعة بعينها في مجال معرفي بعينه "المناسبة، المشاركة، المشابهة " بين المدلولين: اللغوي والاصطلاحي(7).

وممـا يرشـح مـن كـلام "**المعطـاني**" أنّ المصــطلح القــديم قــد عــانى مــن كيفيــة الانبثــاق، ولاســيما فيمــا يخــص "الدلالــة المفهومية"، ومن لوازم المعاناة الاصطلاحية" اخــتلاف المعنــى الاصــطلاحي عــن المعنــى المعجمـي، فـإذا كـان الأول معنًـى اسـتعمالياً قبـل كـل شـيء لأنـه أكثـر تخصصـاً ودقـة، فإنّ المعنى الثاني في معظم حالاته أكثـر مـن وجهة صفة، هي صفة العموم(8).

ومــن المــؤثرات غــير اللغويــة في ارتجــاج المصــــطلح "**البيئـــة**" ولاســـيما في المصـــطلح النقـدي القـديم، وكـأنّ الناقـد لم يمتلـك أدوات معرفية أو مادية ليخـرج بوسـاطتها مـن إسار البيئة، فالبيئة البدوية هي المصدر، ولا سواها، فالعروضيون استمدوا "البيت، الوتد ـــ الســـبب" مـــن مكونـــات البنـــاء، وأمّـــا الفحولــة، والمعاظلــة فهــي مــن مكونــات اجتماعيــة، وثمّــة مصــطلحات نشــأت مــن الأدوات "الترصــــيع، التســـهيم، التطريـــز" الخاصة بالنسج والحياكـة، وفي طور لاحق تغـادر المصـطلحات المشـتقة مسـوغ النشـوء لتزداد المسافة بينها وبين الدلالة.

الافتراق بين النقد والبلاغة:

ومــن يســتقرئ تــاريخ الفكــر العربــي الإســلامي والنقــدي مــن الجاهليــة إلى عصــر **قدامة بن جعفر** "ت322هـ ـ 948م" فـلا بـدّ أن يتثبت حتماً من التأثر الذي مارسه الواقع الاجتمـــاعي في نشـــوء المصـــطلح النقـــدي وتطوره، ويكفـي أن نشـير علـى سـبيل المثـال إلى اصـطلاح "الفحولـة" عنـد الأصـمعي وإلى المصطلحات المستمدة من أوصاف الخيل عند ثعلب"(9).

ونميـل إلى أن النقـد العربـي القـديم لم يسـتطع أن يـتخلص مـن مشـاركة العلـوم اللغويـة لـه، ممـا أدى إلى المفارقـة في الدلالـة الاصـطلاحية، فقـد نازعتـه "البلاغـة" علـى تلك الدلالة، فبات المصطلح مرتج الوظيفة، والارتجاج نفسه حمل نفسه إلى مصطلحات المعاصرين ولاسيما مع الجيل النقدي الأول، وقـــد أشـــار النقـــاد القـــدماء إلى أهميـــة التخصص "العلم بالشعر" ويقصدون النقادَ" إنّ العلـم بالشـعر قـد خُـصَّ بـأن يدعيـه كـل أحـد وأن يتعاطـاه مـن لـيس مـن أهلـه"(10)، وفي هــذا القــول فصــل ضــمني بــين صــناعة الشـعر وبـين ملكـة النقـد؛ فـالأولى موهبـة والثانية معرفة ودربة، وقد نُقل عن **أبي نُواس** رأيـه:" لـيس هـذا مـن علـم أبـي عبيـدة، إنمـا يعرفــه مــن دُفــع إلى مضــايق الشــعر"(11). ويُـرى ـــ هنـا ـــ أبـو نـواس ناقـداً وشـاعراً، وكـأنـه يـرى فيـه ـــ غـير الموهبـة ـــ المعرفـة والصنعة، وتعزيزاً لهذا أُثر عن **الباقلاني** ت "403هـ ـ101م" قوله: "إنما يعرف الشعر من يُضـطر إلى أن يقـول مثلـه"(12)، وغـني عـن

التـذكير بـأنّ البـاقلاني قـاضٍ ومـتكلم أشعري، وقد اشتهر بمصنفه إعجاز القرآن، إلا أنّ لـه مصـنفات أهـم، وهـي "دقـائق الكلام، الملل والنحل، الإنصاف".

ومع الافتراقين: الوظيفي والبنيوي بين النقد والبلاغة ـ يفارق المصطلح طبيعة المنشأ بحكم الأداء الذي أُوكل إليه بين المفترقين.

وعند الجيل الثاني من النقّاد – مرحلة ما بعد سقوط النهضة ـ **1948** ـ يُزاح المصطلح العربي القديم من التداول، بعد أن تقدم المصطلح النقدي الغربي الخارج من رحم التجريب والمشاكل للعلوم الدقيقة، وتلك العلوم فرضت مناهجها ومصطلحاتها على العلوم الغربية نفسها، وعلى الأخص علوم اللغة وعلم الاجتماع.

بين تراثنا ومصطلحاتهم:

فمن مزاعم الحداثة إنجاز بعض المصطلحات "الأدبية، النظرية، النص" وهذه ليست مبرأة من الحمولات التراثية رغم الفارق في النشوء والتوظيف، فهي مصطلحات في النقد وفي غيره.

فالنظرية مشتقة من "نظر" الثلاثي، والنظر رؤيا الباصرة، ورجاحة الرأي، وإن شئت "رجاحة الظن" والنظر في الأشياء هو إدامة النظر حول التفكير والتدبير والتيقّن، وفي هذا السياق يغلب النظر "الرجاحة" على "نظر" المادية، وفي الحياة العربية تقع على مجموعة "النُّظار" ويعنون بهم أصحاب الرأي الراجح المجرب، وفي حدود ما عايناه لم نلحظ ناقداً أو بليغاً أو شاعراً استعمل "نظرية" بالمعنى المألوف اليوم، وكل ما يمكن ادعاؤه من المعاصرين المعتدين بتراثهم فوق الممكن هو أن العرب استعملوا "النظر" بمعنى "الاستعلام".

في حين انطلق المبحث اليوناني من معنى الملاحظة والتدبّر، وهي نفسها التي صارت "**نظرية**" في الآداب واللغات القومية الأوروبية، والأصل هو "Theoria"، وخاصة بعد عصر النهضة وتشكل الدولة القومية لغةً وأدباً، وأمّا الاستعمال العربي لـ "نظرية" اليوم فهو من قبيل "الإسقاط" أي اكتشاف المكافئ اللغوي بالعربية لمفهومه في اللغات الأوروبية الحيّة، ومن هنا صارت "النظرية" عند العربي تعني ائتلاف بعض المفاهيم المجردة وتآزرها لتخلق – مع الاختلاف ـ وحدة الرأي، فإن تم هذا وجدت طريقها إلى المعاينة والتطبيق، ولما كانت العربية غير منتجة لهذا المصطلح أو لغيره، فقد لجأ "المستعملون" إلى أسلوب **التضايف**" نظرية المعرفة، نظرية الدولة، نظرية الحزب، نظرية الأدب أو "**التواصف**" النظرية المادية، النظرية العرقية النظرية النسبية...".

أما مفهوم "**النص**" في الاستعمالات العربية القديمة فقد تركز على المعطى الحسي "الرفع والإظهار"، ثمّ آل مفهوم "النص" إلى معنى آخر في الاستعمال المفهومي وهو "إسناد" الرأي أو حرفية القول، أمّا في اللغات الغربية فقد اشتق "النص" من الحياكة، وهو من جذر لاتيني"Textue" وبحسب قرب اللغات

القومية من اللاتينية تم الاشتقاق، فهو بالفرنسية قريب من الانكليزية "Texte"، "Text" ولكنه يتغير نسبياً لفظاً وكتابةً بالإسبانية Texto، ورغم القرابة **التيبولوجية** بين الآداب الأوروبية في العصور الحديثة فإنّ "النص" كمصطلح غاب مع جذره عن الفضاء النقدي الأوروأمريكي عن التداول، بل غُيِّب نظراً لاتساع المسافة الزمنية بين المنشأ العلمي للكلمة وبين التطور المفهومي للكلمة التي غدت مصطلحاً، ومن اللافت غير المستغرب عودة "النص" كمصطلح إلى التداول في النقد الغربي بظلال جديدة، تحمل تبعات العصر الثقافية وتشي بالقرابة بين العلوم الإنسانية من جهة وبينها وبين العلوم الدقيقة من الجهة الأخرى، وعلى الأخص مع انبثاق "البنيوية"، **Structuralism**، والبنوية إذ جمعت بين مختلف العناصر الداخلة في تركيب اللغة وبين وظائفها فإنها تقول: "ليس للأعضاء أو للعناصر وجود مستقل عن وظائفها" ومن البيّن أنّ مصادر البنيوية هي فضاءات علم الأحياء ونجاحات هذا العلم على مستويات عديدة إلى الدرجة التي تجاوز فيها علم الأحياء الفائدة التطبيقية، ومن النافل الإغناء أن البنيوية مشت بخط متصاعد منذ عهد "**غرول**" إلى أيام "**ألتوسر**" وقد بذل العلماء جهداً كبيراً لاعتمادها أسلوباً في كل قضايا اللغة والعلوم الإنسانية والفنون بغية الزعم بالتوصل إلى منهج صحيح يؤدي إلى حقائق ثابتة وعالمية التصديق(13).

فإذا كانت الوظائف في حال من التغيّر في عالم البيولوجيا فإنّ البنية لابدّ خاضعة لهذا التغيّر، وهنا يمارس المفهومان: "البنية، الوظيفة" فعلاً مؤثراً في نظرية المعرفة ـ بل يتجاوز الفعل المؤثر إلى مناهج العلم ـ ومن الضروري التنويه بأنّ " المادية الديالكتيكية تعتقد بوحدة البنية والوظيفة، بينما ارتأى ميشيل فوكو –تحت تأثير المركزية الأوربية ـ أن هناك بنىً ذهنية ثابتة مميزة لمختلف العصور في تطور العلم الأوربي"(14).

إذاً ينبثق الاستنتاج من المقدمات السابقة القائل بوحدة الروابط الخارجية والداخلية لاعتماد "المصطلح" والذي لم يعد في ظل النجاحات المذهلة للتجريب وقفاً على التواضع أو الاتفاق العربيين، إنما يتشكل من التغيرات الكيفية لناتج العلوم الدقيقة، وأمّا تعميم المصطلح فيتم عن طريق اللغات الحية "الانجليزية" أولاً، وشقيقاتها الأوربيات ثانياً، لأنّ هذه اللغات هي الحوامل الحيّة للعلوم والفلسفة والآداب والفنون.

"الأدب" بين المفارقة والمقاربة:

تنبئ الكتابة العربية القديمة والتقليدية المعاصرة عن إدراك الكاتب لعلاقة الروابط الخارجية للنص المُنشأ بجوهر الحياة وطبائعها النفسية والمادية، فهو يجمع بين المجرد والمحسوس والعرضي والجوهري كاجتماع الصفة بالموصوف أو انتساب المحمول إلى الموضوع، فالنص لا يمكن له كـ "كلمة" أن يحيا معزولاً، ولا

بدّ من وصف له أو تضايف فنقول كما قالوا: النص الأدبي، أو نص الوحي، أو نص القانون، والممكن من هذا وذاك مفتوح، والمتتبع للمنصوصات التراثية العربية، يدرك أنّ كلمة "أدب" جالت في الفضاء اللغوي على أكثر من مستوى، إلا أنّ مستويي: أدب النفس، وأدب الدرس هما الحالة العامة، والفصل بين المستويين فصلاً فارقاً غير ذي فائدة، فكلما تلقى الدارس معرفة ازدادت نفسه ارتقاءً، ومنه مقول **النبي محمد "ص"**: أدّبني ربّي فأحسن تأديبي"، والإيحاء هنا مباشر بأنّ ما تلقاه وحي جعله في المرتبة الفضلى، وأمّا أدب الدرس فكان في البداية مرتبطاً بالعلوم الدينية بعد البعثة النبوية، ففي الجاهلية لم تُلحظ كلمة "**أدب**" في حدود قراءتنا، إنّما كانت كلمة "**الشعر**" هي السائدة، لذلك باتت علوم اللغة وخاصة البلاغة موظفة في صالح علوم الدين في غاية من أربابها لتمكين المسلم من علوم دينه، ومن التعامل مع المدونات المفهومية وإلحاقه فيما بعد بإحدى الفرق، وفي القرن الهجري الثالث يظهر الجاحظ ت 255هـ علماً على عصره فيستعمل "الأدب" استعمالاً مقصوداً كلما سمحت له أساليب الاشتقاق، ليغدو المصطلح "الأدب" دالاً على إمكانات الصنعة "إنشاء الكتابة" ومنها ليدل على "الأجناس". والدلالة على الأجناس لم تصرف "الأدب" عن الدلالة على "المكارم" النفسية أو السلوكية، ومما يرشح من الاستعمالات تلك دلالته على "**الثقافة**" أي الجمع بين علوم الدين واللغة والدنيا، **فالماوردي** ت 450 هـ يحصر في فصل "أدب العلم" الفضائل في طلب العلم، وأنّ للعلم أدباً، وأنّ الطرفين لا يتنازعان ولا يُنزع واحد منهما عن الآخر" اعلم أنّ العلم أشرف ما يرغب به الراغب"، قال تعالى:(**وما يعقلها إلا العالمون**)، وروي عن النبي "ص" أنّه أوحي إلى إبراهيم عليه السلام: "إني علم أحبُّ كل عليم". وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهم وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لأنّ الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون"(15).

وفي كتابه "فكر ابن خلدون ـــ العصبية والدولة" يخصص المفكر المغربي **د.محمد عابد الجابري** ملحقاً بكتابه، حول أهم المصطلحات التي استنبطها ابن خلدون ووضعها تحت شرط "المصطلحية" وهي كثيرة تربو على ستين مصطلحاً في السياسة والملك والعمران والحضارة والتأنّسُن واللغة ـ إذ يعرّف ابن خلدون الاصطلاح: "التواضع والاتفاق فاصطلحت في كتابي هذا، إن في أسماء البربر وبعض كلماتهم حروفاً ليست من لغة كتابنا ولا اصطلاح أوضاعنا، إن الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني اللغوية المتعارفة فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلحنا على التعبير عنه بلفظ تيسر فهمه"(16).

وقد أظهر الشكلانيون الروس في مطلع القرن الماضي 1914 ـ 1928 أفقاً واسعاً في مفهوم اللغة والأدب إذ "انطلق الشكلانيون في إنتاج نظرية للأدب تهتم بالبراعة التقنية للكاتب ومهاراته الحرفية،

وقد عرّف **شكلوفسكي** الأدب "بأنّه حاصل جمع كل الوسائل الأسلوبية التي يستخدمها" ثم كرسوا مفهوما للأدب على أنّه استخدام خاص للغة، فاللغة العملية تستخدم استخداماً يرتبط بأفعال التوصيل ـ أمّا اللغة الأدبية فليس لها وظيفة عملية، وقد اتجه الشكلانيون الأوائل إلى التوحيد بين صفة "الأدبية" وصفة "الشاعرية" كما أنهم رأوا أن الشعر هو الاستخدام الأمثل للغة، فالشعر لغة منتظمة في كل نسيجها الصوتي"(17).

وكما هو عندنا هو عندهم، ويعني " الأدب" فلم يغدُ مصطلحاً له حدوده المائزة إلا على يد المفكر والأديب الألماني "ليسنج غوتهولت" 1729ــ1781م، فهو كاتب مسرحي وناقد مال إلى "الشكسبيرية" وأعرض عن المسرح الفرنسي، وقد استعان بالفلسفة على تحديد معنى "الأدب" و"النقد" في كتابه "فن المسرح في هامبورغ.

لكن ظهور **رومان جاكبسون** على مسرح الأدب العالمي قد عطف بمصطلح "الأدب" من الاهتمام بطبيعة الانشغال بسؤال لا ينتهي بالسائل إلى قرار"ما الأدب" إلى الإقرار بما أطلق عليه "أدبية الأدب" ويعني **جاكبسون** بالأدبية، قوة الإبداع باللغة التي تجعل النص متعالياً على غيره من النصوص الوظيفية، وللأدبية عنده مقومات أهمها " المهارة الفردية للمنشئ". ثم تابع ميخائيل **باختين** في التوصيل المثمر بين الشكلية والماركسية من حيث إيمان الجيل الشكلاني المتأخر بأنّ اللغة لا يمكن فصلها عن الأيديولوجيا، وكان قد رفض معالجة الأيديولوجيا بوصفها ظاهرة ذهنية خالصة، ويضيف الشكلاني **فولوشينوف**: " إن الوعي نفسه لا ينشأ ويغدو حقيقة لها كيانها المستقل إلا في التجسيد المادي للعلاقات، فاللغة التي هي نسق من علامات ينبني اجتماعياً هي نفسها واقع مادي"(18).

بين الجرجاني ت(978م ـ471هـ" وجاكبسون "1896 ـ 1982):

يُعدّ الجرجاني "عبد القاهر" البلاغيّ الأهم الذي وضع حداً للاجتهاد في هذا المجال، ومن جاء بعده جاء شارحاً أو مؤولاً، ولم يكن ـــ كغيره من علماء العصر الوسيط ـ مهتماً بعلم واحد، فقد درس الفقه والأدب والتاريخ والنحو، لكنه استشاط في الدرس البلاغي، ليضع نظرية علم المعاني في كتاب أطلق عليه دلائل "الإعجاز"، ثم وضع علم البيان في كتابه "أسرار البلاغة" كما وضع **ابن المعتز** من قبله أساس علم البديع"(19).

وبناءً على ما تقدم يمكن الانطلاق من "الجرجانية" لصنع أدوات قادرة على التحليل والعمل في النصوص المعاصرة وعلى الأخص الشعر، وهنا ابتدع مصطلحه "البياني" رغم أنّه عرض لمذهبه تحت مشروع "**النظم**" وعرض من خلاله للتقديم والتأخير والوصل والفصل والحذف والقصر والاختصاص، والنظم هو ـ عنده ـ سر البلاغة، ولا قيمة للمفردات خارج المنظوم، ومن أهم إجراءاته إلغاؤه ثنائية اللفظ والمعنى، بعد أن وحّد بين اللغة والشعر، من خلال تواصل اللغتين: لغة

الشعر ولغة الفلسفة، ثم عمد إلى إقالة الفصل بين التعبير العاري والآخر المزخرف، ليتوصل إلى أنّ التعبير هو الجمال بعينه، وكان أهم إجراءاته المنهج التطبيقي في الأدب ونقد الأدب(20).

ومما قاله الجرجاني:" قالوا: لو كان النظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط، ولم يعرف المبتدأ والخبر لا يتأتى له نظم كلام، وإنما نراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحو، والاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات، إنّا نعلم أنّ الصحابة في الصدر لم يكونوا يعرفون الجوهر والعرض وصفة النفس وصفة المعنى التي وصفتموها، فإن كان لا تنم الدلالة على حدوث العالم والعلم لوحدانية الله إلا بمعرفة هذه الأشياء فينبغي لكم أن تكونوا في العلم أعلى من منازلهم"(21).

هذا الاحتجاج بالجيل الإسلامي الأول جعل الحجة الجرجانية مرتبطة بـ "**المقدس**" البشري الذي رافق "الدعوة"، والتساؤل الذي طرحه يمكن لنا الإجابة عليه بعكس ما أراده هو، فقد يكون الجيل الأول طهرانياً، لكنه ليس معرفياً بمستوى الجيل من القرون الهجرية "من الثاني إلى الخامس" وهي قرون **المثاقفة**.

ومن اللافت محاولة الباحث الأكاديمي **د. كمال أبو ديب** إجراء المقارنة بين **الجرجاني ورومان جاكبسون** في بحثه " **أنهاج التصور والتشكيل في العمل الأدبي**" من خلال مشاركته في النادي الأدبي بجدة **1988**م، إذ وجد المشروع الجرجاني يتعلق بـ"**المعنى**" وبـ "**معنى المعنى**" والأمران حددا أنهاج الشعر من حيث تشكيله اللغوي، كما تظهر طرائقه في معالجة القضايا، فأداء المعنى أساس النمذجة الشعرية في التشكيل الكتابي والاستعاري، فتأدية المعنى بدلالة اللفظ وحده، وتأدية معنى المعنى يتم بوجوهه المختلفة من استعارة وكناية وتمثيل ومجاز، وبناءً عليه **فوّق** أبو ديب **الجرجاني** على **جاكبسون** في أنظمة العلامات وخاصة في إنشاء الأدب.

أمّا رومان **جاكبسون** فهو رائد التحليل التركيبي باللغة، إنشاء تقنيات من أجل تحليل أنظمة الصوت في اللغات، ثم انتقل إلى تحليل أصناف الشعر، واستنتج طبيعة "العقل" الروسي من خلال الأنماط الشعرية التي حللها، ثم انتقل إلى دراسة الشعر والفنون البصرية، ليتوقف طويلاً عند تكييف التحليل التركيبي لضوابط ما وراء اللغوية". مما يتضمن علم الأعراق المتحضرة " الأنثربولوجي" ونظرية الأدب، وتبدو المسافة بين **الجرجانية** و"**الجاكبسونية**" هي المسافة بين القرن الميلادي العاشر والقرن الميلادي العشرين، وفيما يخصُّ الزخارف النحوية جاوز جاكبسون بخياله التركيز على البيت الشعري المفرد إلى فضاء النص كلّه، لافتاً إلى أن التكرار ناتج عن تكرار الصور النحوية، ويبدو أن المطولات الملحمية كانت في مخيلته وهو يدلي بهذه القناعة، ومما تباين به عن الجرجاني تركزه على التماثلات النحوية، إذ عدّها فارقة من حيث

هـي أداة شـعرية فعّالـة، لكـن التوافـق بـين البلاغيـيّن: العربـي الروسـي والروسـي الأمريكـي كـان علـى اعتبـار النحـو لـيس غرضـاً مقصـوداً لذاتـه، علـى الـرغم مـن أنّ النحو هو الركيزة فيما تستند إليه الدلالة، ومن التجني الاعتقاد بـ"تفوق" **الجرجاني** في "**البيانية**" على "**الأدبية**" **لجاكبسون** حتى لو أخـذنا عليـه حصـر الاسـتعارة بالشـعر، أو ربطه المجاز المرسل بالنثر، فالإجراءات على اللغات الحديثة لها خصوصيتها المرتبطة بـ "التجريـب" والتجريـب ديـدن العصـر مـن **بيكـون ونيوتـون** وترسـيخاً مـن **داروين** و**فرويد**.

هوامش:

1ـ للمزيد راجع المعجم الفلسفي ـ دار التقدم موسكو 1986.

2ـ العبارة لعلي بن أبي طالب وقد وجهها لابن عباس وهـو يحـاور الخـوارج وقـال لـه: لا تحاججهم بالقرآن فهم حفظة له وهو حمّال ذو أوجه. تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة فلن يجدوا عنها محيطاً ـ نهج البلاغة ج3 ـ ص399.

3ـ الخصائص ـ ج1ـ تحقيق محمد علي النجار ـ ط2 ـ ص40 ـ 41 عن ط1 1913.

4ـ المصطلح النقدي، إدريس الناقوري ـ المنشأة العامة للنشر ـ طرابلس الغرب ـ ليبيا ـ 1984 ـ ص10.

5ـ عبد السلام المسدّي ـ علم المصطلح ـ قاموس اللسانيات ـ تونس، الدار العربية للكتاب 1984، ص22.

6ـ جدلية المصطلح والنظرية النقدية، د.توفيق الزيدي ـ قرطاج ـ تونس ط، 1 1998، ص47.

7ـ أثر البيئة في المصطلح النقدي القديم ـ 1990 ـ النادي الأدبي ـ جدة.

8ـ راجع تمام حسان ـ في "اللغة المعيارية والوصفية" ص120.

9ـ إدريس الناقوري، المصطلح النقدي، مصدر سابق ص11، ويبدو الناقد معتمداً على آراء محمد مندور في النقد المنهجي.

10ـ الآمدي ـ الموازنة ج1 ـ ص373.

11ـ ابن رشيق ـ العمدة ـ ج2 ـ ص104

12ـ الباقلاني ـ إعجاز القرآن ـ ص121.

13ـ راجع المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين 1979 ص52.

14ـ راجع المعجم الفلسفي المختصر ـ مصدر سابق ص96.

15ـ الماوردي، أدب الدين والدنيا، دار الريان للتراث ـ 1988 ـ القاهرة ـ ص52.

16ـ محمد عابد الجابري ـ الكتاب المذكور ـ دار الطليعة ـ ط3 ـ 1982 ص 437.

17ـ رامان سلدن ـ النظرية الأدبية المعاصرة ـ ترجمة جابر عصفور ـ دار قباء ـ القاهرة 1998 ص 127.

18ـ المصدر السابق، ص18.

19ـ عبد العزيز عتيق ـ علم المعاني ـ دار النهضة ـ 1985 ص25.

20ـ راجع قضايا النقد الأدبي ـ د. محمد زكي العشماوي ـ دار النهضة ـ 1984 ـ ص277 ـ 285.

21ـ دلائل الإعجاز ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ تحقيق محمد رشيد رضا ـ 1981م ـ ص64 ـ 65.

□□